بريد مؤجل

علا عليوات

جميع هذه الرسائل تمت إعادتها إلى المرسل؛ إما لعدم وجود عنوان للمرسَل إليه، أو لاتضاح أن المرسل إليه متوفى، أو مفقود، أو لم يُولد بعد.

عزيزي آينشتاين...

للأمانة، قرأت كثيرًا مما كتبتَه حول الزمن، وللأمانة أكثر، لم أفهم نصف ما قرأت، مع أنني وللأمانة قد حاولت

وأتفهم رأيك في مسألة السفر عبر الزمن، أتفهمه على مضض يعني، وأتقبل أن تسريع الوقت والقفز إلى المستقبل أمر صعب، صعب جدًا، وأن السبيل الوحيد إليه هو الدخول في غيبوبة والاستيقاظ في الموعد المنتظر، أو صبر جميل والله المستعان

وأتفهم على مضض أكبر رأيك العلمي أن العودة بالزمن هي أولى المستحيلات، ولم أحلم يومًا بالعودة لكشف المخطط الصهيوني في فلسطين أو إنقاذ ولي عهد النمسا أو تحذير سكان هيروشيما من شر قد اقترب. أنا لا أريد حتى العودة عشر سنوات إلى الوراء، ولا حتى سنة، ولا شهرًا، ما أريده أبسط من ذلك بكثير...

كل ما أريده هو ثلاثون ثانية، فقط لا غير. ثلاثون ثانية كي أدوس على الفرامل في الوقت المناسب. كي لا أقول تلك العبارة الغبية التي جرحت شخصًا عزيزًا علي. كي لا أسأل ذلك السؤال الذي كنت في غنى عن إجابته. كي أكبح تلك الضحكة أو تلك الشتيمة التي خرجت في غير موضعها.

عزيزي آينشتاين،

نبّش بين أوراقك من جديد، لا بد أن تجد شيئًا ما، قانونًا هنا، نظرية هناك. ثلاثون ثانية لا تكاد تساوي شيئًا في عمر الشعوب، ولا يُعقل أن تعجز عنها قوانين الفيزياء.

عزيزي آينشتاين، دبّرها بمعرفتك.

عزيزتي زينة...

ربما من النفاق أن أخاطبك بعزيزتي، فالعزيز عادة شخص تُسر لرؤيته، لكن الشعور الذي اجتاحني حين رأيتك بالأمس كان أبعد ما يكون عن السرور، بل إن رؤيتك مسحت أي أثر للسرور كان في نفسي، ولا أشكرك على ذلك، فقدرتي على الشعور بالسرور صعبة هذه الأيام، والاحتفاظ بالشعور أصعب.

لعلك الآن تظنين أنني أهذي أو أن هذه الرسالة وصلتك بالخطأ، فنحن لم نلتِق منذ سنوات، منذ خمسة عشر عامًا على وجه الدقة. لكنني رأيتك، رأيتك ولم تريني، أو ربما رأيتني وتظاهرت بأنك لم تعرفيني، خجلت بي. لكن لن أظلمك بهذا الافتراض، فلم نكن مقربتين أيام المدرسة، كما أن شكلي تغير كثيرًا منذ ذلك الحين - على عكسك- وربما لم تعرفيني فعلًا.

قد لا أكون منصفة بصب كل هذا الغضب عليك، فأنت لم ترتكبي أي ذنب سوى أنك كنت موجودة في السوبرماركت في تلك اللحظة بالذات، مجرد وجودك هناك بقوامك النحيل وشعرك الخيلي كان كافيًا لنزع مزاجي ووضعي في حالة من التساؤلات عن جدوى حياتي. الأسوأ من ذلك -أسوأ لي وليس لك طبعًا- هو أنك لم تكوني وحدك، كان معك زوج وسيم وطفلان، طفلة تشبهك تمشي بجانبك وطفل نائم لم أرَ وجهه تحملينه بين ذراعيك. لكنه بدا مرتاحًا جدًا، وأنت بدوت مرتاحة جدًا، وسعيدة جدًا، كلكم بدوتم كذلك.

ألم تتذكري بعد؟ ربما لم تنتبهي لي، سأعطيك أفضلية الشك - تعلمت هذا المصطلح من مشاهدة المسلسلات الأجنبية، أشاهد مسلسلين كاملين كل أسبوع وأحيانًا أكثر، أما أنت فلا أظن أن لديك وقتًا لذلك. على كل حال، قلت لك إنني قبل أن أراك كنتُ بخير، بل كنت شبه سعيدة للمرة الأولى منذ وقت طويل، فقد بدأت أذهب إلى أخصائية تغذية

أعطتني برنامجًا لتخفيف الوزن، وكان هذا اليوم الأول من الحمية. كنت أشعر بالحماس فعلًا، مصممة على تغيير حياتي بدءًا من هذا اليوم، ولكن بينما كنت أقف في قسم المأكولات الصحية أقارن بين أنواع البسكويت الخالية من السكر، وإذ بي أراك هناك، كما أنت، نفس الصوت ونفس الوجه ونفس الجسم الذي لم يتغير حتى بعد إنجاب طفلين، أحدهما لا يتجاوز عمره أشهرًا قليلة.

لا أعرف إن كنت رأيتني وتجاهلتني أو إن كنت لم تريني أصلًا، لكن لا بد أنك سمعت صوت علب البسكويت وهي تسقط من يدي، وربما نظرت فرأيتني أخرج مسرعة من المحل. شعرت بحمم تتصاعد إلى رأسي، وهاجمتني صورتي وصورتك قبل خمسة عشر عامًا. لطالما عصفت بي الغيرة وأنا أنظر إليك وأتمنى لو كنت مثلك، لو كان لدي جسدك النحيل وشعرك الطويل الناعم. كنت أتذكرك حين أعد طبقات الشحم حول خصري، وحين تصحبني أمي إلى طبيب التغذية كل أسبوع، وحين آكل الشوكولاتة خلسة من وراء ظهرها، أو حين أذهب إلى الكوافيرة وأسمع تنهيدتها استعدادًا للجهد الذي ستبذله لترويض تجاعيد شعري الخشن.

كم حسدتك في تلك الأيام، وكنت أمنّي نفسي بأن الأحوال ستنقلب، وسأصبح أنا الجميلة المرغوبة. رسمت لنفسي صورًا لا تشبهني ولا أعرف كيف ستتحقق. كنت أقول لنفسي إن السنين كفيلة بتغيير كل شيء، لكنّ رؤيتك في ذلك اليوم كانت صفعة أيقظتني من الوهم لأدرك أنّ شيئًا لم يتغير. في الحقيقة، لقد تغيرت بعض الأشياء، الآن أصبحت لديك أشياء أخرى أتمنى لو كانت لدي. ربما كنت أقنع نفسي في مكان ما من عقلي الباطن بأنك الآن مثلي، بدينة ووحيدة، فلا شيء يدوم على حاله، ولا يعقل أن تحتفظي بجمالك ورشاقتك مدى الحياة. ألم تمر علينا الأعوام نفسها؟

غادرت المحل في حالة من التشتت، ثم توقفت عند مطعم شاورما وقررت أنني لن أبدأ الحمية اليوم. فكرت في أشياء كثيرة، فكرت في أن أجد طريقة لرؤيتك أو الاتصال بك، لكن لماذا؟ لم أعرف ماذا سأقول، شعرت بأن علي مواجهتك فحسب.

لدي الكثير لأقوله لك، لكنّي سأتوقف هنا، فقد انتهيت للتو من تنزيل الموسم الجديد من The biggest Loser، أود مشاهدته كنوع من التحفيز قبل أن أبدأ الحمية الجديدة، غدًا...

عكازي العزيز...

أعتذر عن الثقل الذي تنوء به إذ تسند جسدي الخامل يومًا بعد يوم. أدري أنك تتعب معي وترجو لو أركن إلى أريكتي الوثيرة أمام التلفاز كأي رجل محترم في سني، أقلّب المحطات متابعًا أخبار عالم ما عاد يهمني في انتظار انتقالي إلى عالمي الجديد، لا يقاطع ذلك سوى رنين الهاتف اليومي من ابن يطمئن إن كان هناك حليب في الثلاجة، أو ابنة تطل يومًا بعد يوم لترتب البيت وتجلب الطعام، وتغضب إذ تجد الطعام الذي جلبته قبل يومين على حاله، لم تمسسه يد.

أدري أنك تفضل ذلك، كما يفضله ابني وابنتي وأحفادي، فلا مشاوير تتعبك وتقلقهم. لكنّي مثلك متعب، يثقلني ما يثقلك، ليس عظامي الهشة أو عضلاتي الضامرة، ولا الخوف من مجهول قادم. أنا، يا رفيق أيامي الأخيرة، مثقل بروحي.

وأنا مثلك، جذع قُطع من شجرة. لا تحدثني عن الأولاد والأحفاد. لقد قُطعت من شجرتي يوم محوت رقم آخر صديق من سجل الهاتف. بعد ذلك اليوم لم أعد صديق الصبا والشباب، بل الجد الذي يحتاج إلى من يذكره بأخذ أدويته ويصحبه لإجراء صورة للهيكل العظمي كل ستة أشهر. أما روحي الغضة، فلا يراها أحد، أحمل عبئها وحدي، تشكو من وهن جسدي الذي لم يعد يقوى على احتواء جموحها، تهدد بالتمرد، روح ناشز لرجل عاجز لا يجرؤ على معارضتها، وينصاع لها بتسليم وخضوع.

لهذا يا صديقي الخشبي تراني أصحو كل يوم، أحدق إلى السقف بضع دقائق، أستوعب أنني مُنحت يومًا آخر، ثم أهمّ بممارسة الجهاد اليومي كما أفعل منذ ثمانين عامًا. أتعرف كم من المتعب أن تكون بشرًا؟ عليك أن تكرر نفس الأفعال الروتينية كل يوم، تغسل وجهك، تفرشي أسنانك، تتبول وتنظف نفسك، تستحم... ولا يكفي أن تفعل ذلك عشرين

أو ثلاثين عامًا ثم تستريح، لا، عليك أن تفعل ذلك كل يوم حتى تموت، وإن أغفلته يومًا ظهرت آثاره عليك وأصبحت منبوذًا بين الناس. أنفذ روتيني اليومي القسري بإخلاص ثم أمشي نحوك بخطوات ثقيلة، أشعر بخوفك، بل أكاد أراك ترتعش. أشفق عليك لكن ما العمل وهي لا تشفق علي؟ تلك الروح الثائرة الماجنة التي تأبى أن تفارق جسدي أو أن تخمد وتنطفئ حتى تحيله إلى رماد.

أتكئ عليك ونخرج ثلاثتنا، أهيم بها في شوارع المدينة بخطوات بطيئة متقاربة، أو أستقل سيارة أجرة وأتبادل أحاديث لا معنى لها مع سائق يحاول تبديد ضجره، وقد تخدعه نظارتي السميكة وتجاعيد وجهي الرفيعة الكثيرة فيحاول مضاعفة الأجرة، وأتركه أنا يستمتع بانتصاره الوهمي الصغير. أو قد أركب حافلة فتصعد شابة جميلة، تقلب نظرها في الجالسين وتختار الجلوس بجانبي كخيار آمن، عجوز ضعيف غير ذي إربة بالنساء، وأتقبل الإهانة بصدر رحب، فإن كان جسدي عاف النساء فروحي لم تعف الجمال، وتجلس هي غير دارية أي فوضى أثار عطرها في الحواس، وأي سيل من الذكريات فاضت به الروح

هكذا يمضي اليوم. كل يوم أخرج لأودع المدينة والناس علّه يكون الأخير. أريها كل ما تلحّ في رؤيته، أتجول بها في الأزقة والمقاهي القديمة في وسط البلد، أسقيها الشاي والقهوة، أطعمها الكنافة والتمرية متجاهلًا احتجاجات الكبد والبنكرياس. الروح تطلب السكر، الروح تأخذ ما تريد.

لكن، ماذا تريد بعد؟ لا أدري، ولا أطلب منك سوى أن تتحملني إلى أن أعرف ما الذي تبحث عنه هذه الروح المجنونة وتدفع بي هائمًا كل يوم لإيجاده. هذه الروح ثقيلة بخفتها، ريشة من حديد تشدني إلى الأرض بينما تتوق إلى السماء، فإما أن أرضخها أو أن تشق

جدران الجسد فنرحل معًا ونتركك بسلام، راقدًا في خزانة مغلقة أو منسيًا في زاوية كذكرى من جد راحل، جذعًا مقطوعًا من شجرة...

عزيزي س...

تذكرتك بالأمس. لا أعني أني كنت أحاول نسيانك، أو أنني أبذل جهدًا كي لا أفكر فيك. أنا لا أفكر فيك فحسب. لكن شيئًا ما ذكرني بك بالأمس.

كنت أشاهد فيلمًا من الأفلام التي تكرهها. فيلم خيالي عن مركبة فضائية تائهة في الفضاء. أعجبني الفيلم، ما كنت لأجرؤ على إخبارك بذلك، كنت ستقول إنه فيلم تجاري مبتذل ومضيعة للوقت، وستجعلني أشعر بأنني ارتكبت إحدى الكبائر لأنني منحته ساعتين من عمري، لكن الآن لا يهمني، سأقول لك إنني شاهدت الفيلم وإنه أعجبني ولتقل ما شئت.

لكنني في الحقيقة لم أكمل الفيلم حتى النهاية، بسببك أنت تحديدًا، حيث أنهم قالوا شيئًا عن كوكب الزهرة. ذكرني ذلك بالكتاب الذي أعطيتني إياه قبل أن نفترق بفترة. نسيت اسم الكتاب، فقد أضجرني كثيرًا ولم أكمل قراءته، ولم أرك بعدها كي أعيده لك، لكن الفضول أصابني فذهبت واستخرجته من درج المكتب حيث أدفن الأشياء التي أعرف أنني لن أستخدمها مرة أخرى ولا أقوى على التخلص منها بعد.

"الرجال من المريخ والنساء من الزهرة"، ذلك هو الكتاب. وقتها قلت لي إنني لا أعرف كيف أتعامل مع الرجال وإن هذا الكتاب سيساعدني في ذلك، فقلت لك إنني أعرف كيف أتعامل مع الرجال، لكنني لا أعرف كيف أتعامل معك فقط. ثم إنني لا أحب القراءة، وأنت تعرف ذلك، إلا أنك تبرمت كما تفعل دائمًا حين تنتقد قلة ثقافتي وأصررت على أن آخذ الكتاب وأقرأه.

حاولت، من أجلك، لكنه قتلني وهو يعيد ويكرر كلامًا أعرفه مسبقًا، ربما لا أملك القدرة على صف الكلمات المناسبة للتعبير عنه، لكنني أعرفه. وبعد مكالمتنا الأخيرة رميته في الدرج ولم أعد إليه حتى البارحة.

لا أعرف كيف انتهى الفيلم، فقد توقفت عن مشاهدته بعد أن رأيت السفينة الفضائية تحاول جاهدة الابتعاد عن كوكب الزهرة وتحذر من خطر الهبوط عليه.

هنا تذكرتك - أنت وكتابك- وشعرت بدمي يغلي. كيف أقنعتني طوال هذه السنوات أنني من الزهرة؟ أنا لا أريد أن أكون من الزهرة، ذلك الجحيم الصغير الذي لا يطاق حره ولا يسمح بالحياة. لِمَ تكون أنت من المريخ الذي يسعى الجميع إلى استكشافه وبدء حياة جديدة عليه، وأكون أنا من كرة ملتهبة لا يقربها أحد؟ لِمَ لا أكون من المشتري، كوكب كبير مهيب جميل الألوان. أو من زحل، زحل يناسبني تمامًا؛ تعجبني الحلقات الملتفة حوله كأنه يتحزّم للرقص على وقع طبلة شرقية، وأنت تعرف كم أحب الرقص. تحمست أكثر وأنا أقلب بين صور الكواكب وأقرأ عنها على الإنترنت، وأظن أنني وجدت الكوكب المناسب لك أيضًا: بلوتو - بارد وبعيد ومنفي من دفء الشمس.

لكنني لن أفرض عليك من أي كوكب تريد أن تكون، يمكنك أن تكون من المريخ أو من الزهرة أو من أي كوكب آخر. أما أنا، فيكفيني أن أكون من الأرض.

عزيزي الموت...

ثلاثون عامًا وأنا بانتظارك، ثلاثون عامًا منذ أدركت أن فيك تكمن غاية حياتي ولحظة مجدي الوحيدة. وانتظاري لك لا يشبه انتظار الآخرين، فانتظارهم لك خوف وترقب، وانتظاري شوق وشغف. هم ينكرونك ويهربون منك، وأنا أستشعرك حولي وأتوقعك في كل لحظة بكل حواسي المدرَكة وغير المدرَكة.

أعترف أنني كنت مثلهم فيما مضى، أرتعش لذكرك وأنتفض فزعًا إذا ما تذكرت أنني سيواريني التراب يومًا و تنقطع صلتي بهذا العالم. كنت أخشى أن تغيبني قبل أن أرى أبنائي يتخرجون من الجامعة، أو أن أكون مجرد صورة تُعرض في أعراسهم فيذرفون علي دمعة قبل أن تُستأنف الزفة ويطغى صوت الغناء على النشيج، أو أن أضحي ذكرى يروونها لأحفادي الذين لن أراهم.

لكنني رأيت كل ذلك. رأيت كل أبنائي يقذفون بقبعات التخرج في الهواء، ويمشون وسط الزغاريد مع أزواجهم وزوجاتهم. شهدت ولادة أطفالهم واحدًا تلو الآخر، وها أنا أكاد أرى أحفادهم. تصور أن أطفالي الذين كنت أخشى أن يبعدوا عني ساعة أصبح لديهم أطفال الآن، وأطفالهم كبروا وسيصبح لهم أطفال عما قريب! ستصبح ابنتي جدة لأحفاد جدد، وأنا سأصبح الجدة الكبيرة الجالسة في مقعدها بلا حراك كبقايا مسلة فرعونية.

لا أدري كيف مر الوقت بهذه السرعة، كل ما أعرفه أنني كنت مهمة وفجأة أصبحت بلا هدف. لم تعد ابنتي تلجأ إلي لتقصير فستانها الجديد، وابني الآن يفضل طعام زوجته الأقل دسمًا والذي يراعي قولونه العصبي. حتى أحفادي كبروا على قصص جدتهم، ولم أعد أرى وجوههم إلا في الأعياد والمناسبات، هذا إن رفعوها عن شاشات هواتفهم. لم تعد

جدتهم مهمة إلا حين تمرض، فيهرعون للتحلق حولي خوفًا من أن تكون آخر مرة يرونني فيها.

وتلك هي اللحظة التي أحلم بها منذ أول ليلة نمت فيها في منزل فارغ. الزوج مات منذ سنوات، وها هو آخر الأبناء يتزوج ويترك البيت، وأنا وحدي مع ذكريات عمر أفنيته في خدمتهم، منشغلة عن نفسي حتى تماهيت فيهم وخلت أنهم أنا، لا ننفصل أبدًا. لكنهم أعلنوا انشقاقهم إلى حياة جديدة، وبقيت وراءهم أنتظر لحظة النهاية التي ستعيدهم باكين يتمنون عودة يوم واحد من أيامي.تخيلت كل شيء، لحظة توقف جهاز التنفس الاصطناعي، صرخة الفجيعة الأولى، الجنازة، الخلاف حول من سينزلني إلى القبر، كل شيء.

وها أنا ذا أنتظرك منذ ذلك اليوم. على مدى أربعين عامًا رأيتك تزور كل من أحب، أمي، أبي، أخواتي، حتى صديقاتي القلائل لم يبَق منهنّ سوى واحدة أو اثنتين، وهنّ مثلي يقفن مترنحات على مشارف الثمانين، بالكاد يقوين على التحدث في الهاتف. وجميعنا نترقبك، لكنني أترقبك بلهفة تفوق لهفة أي أحد، ولطالما خاب ظني، ولا زلت يخيب ظني كلما ذهبت إلى الطبيب لعمل صورة أشعة للصدر باحثة عن خلايا سرطانية تنهي المسألة خلال شهور قليلة، أو كلما أصبت بوعكة صحية شعرت بأنني لن أقوم منها وجمعت أبنائي وأحفادي حولي للوداع. ترقبتك كثيرًا في كل سعلة وكل مغص وكل وخزة جهة القلب. قال لي الطبيب في آخر زيارة إنني مصابة بوسواس المرض، سألته إن كان ذلك سيقتلني فقال لي أن أطمئن، لكنني لم أفهم إن كان ذلك جوابًا بالنفي أم الإيجاب.

قرأت قبل أيام خبرًا عن عجوز تجاوز عمرها المائة، تقول فيه إن سر الحياة الطويلة هو أن تتمنى الموت. أرعبتني الفكرة، لا أريد أن أعيش حتى المائة ولا أريد أن أصبح مادة إخبارية أو "فرجة" للناس في البرامج التلفزيونية. لكن ماذا أفعل وأنت تبطئ القدوم؟

فعلت كل ما بوسعي لاستعجالك، لكن لا يمكنني استجلابك بنفسي، فأنا امرأة مؤمنة، كما أن هيبة لحظة الموت تكمن في كونه قسريًا وخارجًا عن الإرادة، الاختيار يسلب الموت هيبته. أتعرف ذلك المسلسل التلفزيوني، نسيت اسمه، لكن اسم البطل كان مفيد الوحش، وكان رجلًا لا يهاب شيئًا. في المسلسل يموت البطل حين يلقي بنفسه فوق عدوه فيغرقان معًا، لكن ابنتي قالت لي إن نهاية الرواية مختلفة، فالبطل يموت برصاصة يضعها في رأسه. لو مات البطل في المسلسل هكذا لما حصد كل التعاطف والاحترام الذي حصده من الناس، ولاختلفوا فيما إن كان تصرفه جبنًا أم شجاعة.

إذًا، سأصبر عليك، لأنني أعرف أنك قادم لا محالة، هذا وعد لا يُخلف. لست عاشقة تنتظر حبيبًا لن يعود، أنا أنتظر هاذم اللذات بجلالة قدره، ميزان العدل الخالد. لا أدري لِمَ يكره الناس الموت كل هذا الكره، بل ويحلمون بالقضاء عليه. نعم، سمعت أن العلماء يعملون على وسائل تعطي الجسم مناعة ضد الشيخوخة وكل الأمراض، أي أن الموت لن يعود حتميًا. هذا يعني أنك لن تموت بسبب السرطان أو التقدم بالعمر، إلا أنك قد تموت إن تعرضت لحادث سيارة مثلًا، أي أن الموت سيصبح شيئًا يمكن تفاديه. لا أظن أن بوسع أي إنسان تحمل هذه الفكرة. تخيل أن يموت ابنك أو أمك أو أخوك في حادث وتخسره للأبد، وأن تعيش كل يوم مع فكرة أنه كان يمكن ألا يموت. أليس عزاؤنا الأكبر في الموت أنه النهاية الحتمية للحياة سواء طالت أم قصرت؟

ما زلت تتأخر في القدوم، وما زلت أسلي نفسي بالأسئلة وتخيل اللحظات الأخيرة، وأنتظرك.

عزيزتي المرأة الأخرى...

ربما كان من الأنسب أن أبدأ رسالتي إليك بـ"غريمتي" أو أي كلمة أخرى تصف علاقتي بك بشكل أدق، لكن الرسميات وحكم العادة جعلاك عزيزة ليست بعزيزة. إنني أجانب الدقة حتى حين أقول إن لي علاقة بك. لا علاقة بيننا، ولا أعرف من تكونين، لكنني أشم رائحتك كل ليلة في مسامات ذلك الذي جمع بيننا وجعلنا عدوتين لا تعرف إحداهما الأخرى.

أعترف بأنني بحثت عنك، في كلامه وملامح وجهه وسجل مكالماته وقائمة أصدقائه على الفيسبوك. عبثًا بحثت ولم أجدك، لكنني متيقنة من وجودك. أرفض فكرة أنك لست سوى خيال من بنات أفكاري، وليدة غيرة عمياء لم تفارقني منذ ابتليت به، فأراك تتمثلين أمامي كلما تأخر عن البيت أو عاد يشكو التعب ونام دون أن يقربني. أتصور وجهك، قسمات جسمك، لون شعرك، صوتك، ما الذي يجده معك ولا يجده لدي؟

رسمت سيناريوهات كثيرة. مرة أكتشف رسالة منك وأواجهه بها، أو أسمعه يهمس إنه يحبك على الهاتف في عتمة الليل. أبكي وأصرخ وأحطم تحفًا ثمينة، أترك البيت، أغيب شهرًا ويحتار كيف يراضيني، إلا أنني في النهاية أرضى، وأسامحه.

في الحقيقة، أنا أدرك تمامًا أنك غير موجودة خارج رأسي، إلا أنني أتمنى لو تكونين حقيقة واقعة، شرارة تشعل النار التي انطفأت منذ سنوات. لكنني حين أنظر إليه وأتأمل حركاته البليدة وهو يتناول السيجارة ويشعلها ببرود ريثما هو شارد بعينين ثابتتين على شاشة التلفاز التي تعرض مباراة لا تهمه، يراودني شعور بيأس غريب، يأس من أنه قد يثير اهتمام أي امرأة أخرى، لا سيما بعدما تقمص دور الزوج النمطي ببراعة، فكثر طعامه وقل كلامه وعلا شخيره.

لكن دعيني أقنعك، لعلك لا تعرفينه بعد، فأن تعرفيه يعني أن تدمنيه. هو سبب بكائك والكتف التي لا تشتهين البكاء إلا عليها، داؤك ودواؤك، السمّ والترياق. قد يوهمك بأنك حرة، يمكنك الانسحاب متى شئت، لكن إن حاولت ستكتشفين أنك في سجن بنيته بنفسك ووقعت في حب السجّان- كما أنه يخرج كيس النفايات كل مساء دون تذمر، بل حتى دون أن أطلب منه، ألا يستحق رجل كهذا أن تعطيه فرصة؟

يمكنك أن تقولي عني مهووسة أو عديمة الشخصية، امرأة تستهين بنفسها وترضى بذل الخيانة. لا بأس، لكن فكري في الأمر، وسأكون بانتظار ردك...

جدتي العزيزة...

حلمت بك الليلة الماضية. كنت في جمع من الناس، تسألين عن شيء ما. اقتربت منك وحاولت أن أفهم ما تريدين، فحضنتني بقوة وبكيت، وشعرت بحرارة دموعك على وجهي. ثم استيقظت.

أمي فسّرت الحلم بأنك تريدين أن نوزع صدقة عن روحك، قالت إننا لم نفعل ذلك منذ زمن ولا بد أنك غير راضية عن الأمر. خالتي قالت إن الحلم تحذير لي، وأنني بعيدة عن الله، وأنك تخشين علي. تعرفين كيف هي خالتي، تقيس المسافة بيننا وبين الله بأمتار القماش. أختي قالت إنني أفتقد الحنان لذلك أحلم بالأموات والدموع كثيرًا. أما أبي فسألني إن كنت أعطيتك شيئًا في الحلم، وحين أجبت بالنفي قال إن حلمًا كهذا يبشر بطول العمر. كل منهم كان لديه تفسيره الخاص، لكنني أعرف تمامًا ما يعنيه هذا الحلم.

أعرف أنني مقصرة في حقك، لم أكتب لك منذ زمن ولم أطلعك على آخر الأخبار، لكنني أمنّي نفسي دائمًا بأن الموتى يعرفون أخبارنا بشكل ما. وإن أردت أن أكون صريحة معك، فأنا غاضبة، ليس منك بل من نفسي. أشعر بالذنب يخنقني كلما تذكرت الساعات التي كان بإمكاني أن أقضيها معك، وأن أسمع حكاياتك، فيما كنت أفضل مشاهدة التلفاز أو التظاهر بأن علي الدراسة أو الخروج لأمر مهم. كنت صغيرة، وكنت أعرف أن علي الشعور بالملل من أحاديث كبار السن، حتى قبل أن أسمعها، وحين أدركت متعة الجلوس معك وحلاوة أحاديثك، كان الأوان قد فات.

يغضبني الأمر كثيرًا حتى أنني ألوم أمي وأبي على أنهما لم ينجباني في وقت أبكر كي أحظى بوقت أكثر معك، لأتجاوز سنوات المراهقة وفراغ العقل قبل سنوات من رحيلك، ولأقضي ساعات أستمع إليك دون تبرم أو تململ. ربما كان ذلك سيخفف من حرقة

فراقك، أو ربما كان سيزيدها، لا أدري. كل ما أعرفه هو أنني يوم عزائك كنت أبكي لسبب مختلف عن الجميع. كلهم كانوا يعرفون أنك عشت حياة حافلة، رأيت أبنائك وأحفادك وأبناء أحفادك، ورحلت بهدوء ومن دون ألم، وذلك كان سببًا كافيًا للشعور بالرضا والامتنان، حتى أنهم وزعوا "حلاوة السميد" في اليوم الثالث من العزاء - كما تجري العادة عند أهل بلدنا حين يموت شخص كبير بالسن. أنا الوحيدة التي كنت أشعر بأنك رحلت صغيرة جدًا، لأنني أنا كنت صغيرة جدًا. شعرت بأنني الوحيدة التي يحق لي أن أبكي عليك، واستفزتني تلك الوجوه الغريبة في بيت العزاء. من هؤلاء الناس؟ كيف يسمحون لأنفسهم بالتطفل على حزني؟ لا أحد يذهب إلى عرس بلا دعوة، لماذا لا يكون الأمر هكذا في الموت أيضًا؟ لماذا يحق للناس التطفل على الحزن دون الفرح؟

لكن ها أنت تزورينني في الحلم بين الحين والآخر لتذكريني بك، ولتقولي لي إنك ما زلت هنا. كلما ذكر أحد نادرة من نوادرك تقول أمي إن روحك طلبت الرحمة، لكنني أعرف أن روحك تواسيني وتدفعني لأطلب من أمي أن تحكي لي المزيد عنك، علّني أقلل ما خسرته بفراقك، وأسمع بعض ما كان يجب أن أسمعه منك- لو أنني أعطيتك الفرصة.

أعرف أنك غاضبة مني أيضًا، ولو كنت ما زلت هنا لقضيت الوقت توبخينني على أسلوب حياتي وخياراتي الطائشة. قد لا أكون أكثر الناس استقامة، وأعترف بأن إيماني يرتفع درجة ويهبط درجات، لكن أملي بأن ألقاك في حياة أخرى وأعوض ما فات من وقت هو المرساة لإيماني المهزوز.

قلت لك إنهم جميعًا كانت لديهم تفسيراتهم لذلك الحلم، لكن أحدًا منهم لم يفطن إلى تفسيره البسيط: أنني اشتقت إليك وحسب.

عزيزي أعمى القلب...

آسفة لقسوة الاسم، لكنك لم تترك مجالًا للتفاهم. كنت "سعيد الحظ" لسنوات، لكن تأخرك كل هذا الوقت جعلني أشك في نفسي وأتساءل إن كانت هناك مشكلة بي. لعل رائحتي نتنة أو وجهي يقطع الخمير من البيت كما يقولون؟ لا أعرف.

لكنني نفضت هذه الأفكار من رأسي وألقيت اللوم عليك، أنت من لا تعرف مصلحتك، لكن وكي لا أظلمك، وضعت عدة نظريات تفسر غيابك. قد تكون مأسورًا في زنزانة تحت الأرض على يد نظام دكتاتوري في إحدى دول العالم الثالث، أو قد تكون تعرضت لحادث دهس حطّم عظامك ولا تزال طريح الفراش في مستشفى ما. أو قد تكون أمك حين علمت بحملها أجهضتك وانتهت حياتك قبل أن تبدأ.

أدرك لا منطقية هذه النظريات، وأرجو ألا يكون أي منها صحيحًا، لكنّي لا أخفيك أنني مللت الانتظار. والمسألة ليست مسألة ملل فقط، فهناك خوف يتملكني كلما أطرقت التفكير - أخشى أنك حين تظهر أخيرًا ستكون صلاحيتي قد انتهت ومنابعي قد جفت وأصبحت أرضًا بور.

لا أخجل من الاعتراف بذلك، فأنا أريدك من أجل مهمة محددة: أريد أطفالًا. أريدهم أكثر من أي شيء في العالم.

هوسي بهذا الأمر جعلني أفكر في طريقة لإيقاف الزمن، فسألت أمي اليوم إن كانت هناك مستشفيات تقدم خدمة تجميد البويضات. جنّ جنونها طبعًا. هدّأت من روعها وقلت لها إنني لا أفكر في ذلك حاليًا، لكنني إن لم أجد أعمى القلب خلال خمس أو ست سنوات على الأكثر فقد ألجأ إلى ذلك. قلت لها فيما بعد إنني لا أظنهم سيقبلون إجراء العملية

لفتاة غير متزوجة، لكنّ ذلك لم يهدّئ فورة غضبها وصاحت بي: "روحي خليهم يعملوكي ست ويجمدوا بويضاتك".

في الحقيقة، أعجبتني طريقتها المهذبة في وصف الأمر، لكنني لطالما تساءلت عن هذا المفهوم. أعني، كيف يصف الناس الفتاة العذراء بأنها "بنت" فإذا ما انتفت عنها تلك الصفة بالزواج أصبحت فجأة امرأة، "ست". أيعني هذا أن الفتاة ذات الخمسة عشر عامًا إذا ما تعرضت للاغتصاب أصبحت امرأة؟ سألت أمي هذا السؤال أيضًا فقامت إلى غرفتها وصفعت الباب.

لا أعرف لِمَ أقول لك هذا الكلام من دون خجل، ربما بدأت أصدق أنك غير موجود فعلًا، وأنا حين أكلمك أكلم نفسي لا أكثر. أرأيت؟ وضعي ليس مطمئنًا. لا أعرف أين أنت وماذا تفعل وما الذي يؤخرك، لكن إن كنت موجودًا فإنني أطالبك بالمجيء حالًا، فقد أستطيع الحفاظ على ما تبقى من عقلي، لكنني لا أستطيع تجميد الزمن إلى الأبد

حبيبتي غالية...

ما زال صوت صرير الأبواب يسبب لي الذعر، رغم كل التقنيات التي استخدمتها طبيبتي النفسية كي تجعلني أنسى ذلك اليوم، لكنها لم تفهم أنني لا أريد أن أنسى، إنني أعيد تلك اللحظة في رأسي كل يوم مئات المرات، وأشعر بالبرودة ذاتها تمتد إلى أطرافي كنهر من الجليد: لا شيء يضاهي رعب العودة إلى منزل صامت، ونداءً لا مجيب له.

غادرتِ البيت مبتهجة ذلك الصباح، قالوا إنه سيكون يومًا ماطرًا، وكنت تنتظرين الشتاء بفارغ الصبر كي تمشي تحت المطر متسلحة بمظلتك المركونة وراء الباب منذ العام الماضي. كانت مدرستك قريبة، لا تبعد أكثر من عشر دقائق مشيًا على الأقدام، وكنت تصرين على العودة مشيًا، وأنا تأخرت يومها بسبب أزمة السير بعد مغادرة العمل واصطحاب أختك من الروضة. كنت متأكدة أنك ستكونين في البيت، حتى حين فتحتُ الباب وباغتني الصمت والظلام الراكدان في الداخل. فتحت أبواب الغرف بابًا بابًا، وخطواتي تتسارع بعد كل صرير مشؤوم. شعرت بقلبي يتحجر في حنجرتي فيما هرعت إلى السيارة لأمسح الطريق بين البيت والمدرسة والصور تتهافت في ذهني كسرب من الغربان، حاولت أن أنفضها عني، صورتك ملقاة على قارعة الطريق، باكية أو متألمة. نفضت كل تلك الصور، لكنها فيما بعد استحالت أمنيات، أحلامًا تراودني في يقظتي ونومي: تعرضت لحادث بسبب الضباب، ووجدتك على سرير في المستشفى، ربما بساق مكسورة أو بعض الرضوض، لكنك كنت بخير بعد ذلك.

لكنّي لم أجدك، لم أجد سوى مظلتك الغارقة فوق بركة من الماء العكر.

اتصلت بكل صديقاتك، لم يرك أحد بعد أن افترقت عنهنّ في منتصف الطريق وذهبت كل واحدة باتجاه بيتها. كلهن وصلن إلى بيوتهنّ، كلهنّ قبّلن أمهاتهنّ أو تشاجرن معهنّ أو تذمرن مما طبخن ذلك اليوم. كلهنّ إلا أنت.

الجميع يريدون مني أن أنسى، حتى أبوك. يقول إنني أظلم أختك. أختك كانت صغيرة، كانت تسأل عنك في البداية، لكنها هي أيضًا ما لبثت أن نسيت. في الواقع، أعتقد أنها تكرهك الآن، وأنا السبب. ذات مرة غضبت مني كثيرًا واتهمتني بأنني لا آبه بشيء سوى بابنتي الميتة، كانت تلك المرة الوحيدة التي صفعتها فيها. ما كان لها أن تجرؤ على افتراض أنك ميتة. لكنّي شعرت بالذنب بعد ذلك، لا لأنّي صفعتها فقط، بل لأنني أكذب عليها وعلى نفسي حين أدعي أنني لا أتمنى كل يوم أن يطرق بابي رجل شرطة ليؤكد لي أنك ميتة فعلًا.

حتى في يوم زفافها لم أستطع أن أكون معها. أعني، كنت هناك بجسدي، لكن عقلي كان شاردًا في مكان بعيد، مكان لا أعرفه، مكان توجدين أنت فيه. لم أستطع التوقف عن البكاء منذ رأيتها بثوبها الأبيض من دون أن تكوني بجانبها، أختها الوحيدة، صديقتها. لطالما تخيلت لو أنك... بقيت... أنكما ستكونان مقربتين، تتبادلان أسرارًا تخفيانها عني، وتتستران على بعضكما حين تفعل إحداكما شيئًا يستحق عقوبة صارمة. لكنها كانت وحيدة ذلك اليوم، أخت مفقودة وأم غائبة، هيكل فارغ من عظم ولحم.

كلهم يريدون أن أنسى، وجزء مني يريد ذلك، لكنّي أشعر بالذنب إن حاولت النسيان بمحض إرادتي، أليس النسيان خيانة؟ أليس استسلامًا؟ لكن هناك أملًا ما. تعرفين أن أمي أصيبت بداء ألزهايمر في الثمانين من عمرها. يا لغبائي! كيف ستعرفين؟ ها أنا ذا أخبرك الآن. ورثت عن أمي معظم جيناتها، وأرجو أن أكون ورثت هذا الجين المعتل أيضًا. لكنني بعيدة عن الثمانين، لا بد من تسريع الأمر، وأنا أفعل كل ما بوسعي في سبيل ذلك، أتناول السكريات بلا تفكير، أبحث عن الأطعمة التي تحافظ على صحة الدماغ وأتجنبها

كما لو كان موتي فيها، حتى أنني توقفت عن القراءة ولعب السودوكو، أتذكرين كم كنت أحبها؟ لم أعد أفعل ذلك الآن، كل تلك تمارين للدماغ تمنعه من الاهتراء والخلاص...

لكن ماذا لو نسيت كل شيء وبقيت أتذكر صرير الأبواب في البيت الخالي منك؟ ماذا لو ظل غيابك الشيء الوحيد الحاضر في ذاكرتي؟

كل هذا ليس مهمًا، أنا مستعدة للمخاطرة بذلك، قلت لك إنني لا أريد أن أنسى أصلًا. لكن خوفي الحقيقي، الخوف الذي يجمد دمي في عروقي ويمنعني من النوم ليلًا هو أن تعودي بعد كل هذا الوقت، ولا أتذكر وجهك...

عزيزي ح...

اليوم هو الجمعة، أتعرف ماذا يعني يوم الجمعة؟ بالطبع، هو لك يوم العطلة الذي لا تستيقظ فيه قبل العاشرة، اليوم الوحيد الذي تتناول فيه طعام الإفطار مع أمك وأبيك، ثم تذهب مشيًا لأداء صلاة الجمعة في الجامع الذي يقع على بعد عمارتين من منزلك. لعلك تشعر بشيء من الخوف الآن متسائلًا من أين جئت بهذه المعلومات. لا تخف، هذه ليست رسالة تهديد أو ابتزاز، ولو كنت أملك ما يكفي لذلك، لكن هذا ليس غرضي، فلا داعي للخوف - ليس بعد- ودعني أخبرك عن روتيني أنا يوم الجمعة.

يبدأ يومي باكرًا، باكرًا جدًا. أبدأ بتفقد حساباتك على الفيسبوك وتويتر وإنستغرام، ثم إن لم أجد شيئًا يشير إلى وقوع ذلك الحدث المشؤوم أنتقل إلى حسابات أمك وإخوتك وأصدقائك المقربين، وتستمر عملية المراقبة طوال اليوم، لكن أكذب عليك إن قلت إن قلبي يطمئن وأنام قريرة العين، فمع أن الجاهات وحفلات الخطبة تُقام عادة يوم الجمعة،إلا أن أصداءها قد لا تتردد على وسائل التواصل الاجتماعي حتى يوم اليوم التالي، وهكذا لا أنال من النوم سوى سويعات عامرة بالكوابيس والأحلام النكدة.

مع نهاية يوم السبت تبدأ ناري بالبرود شيئًا فشيئًا، وأعود إلى المراقبة الهادئة. أعرف أن أي يوم من أيام الأسبوع قابل لأن يتحول إلى أسوأ كوابيسي، لكن من متابعتي لعائلتك منذ ثلاث سنوات وجدت أن احتمال حدوث جاهتك في غير يوم الجمعة لا يتعدى الـ10%، ولست مجنونة كي أخاطر بتلف أعصابي من أجل نسبة ضئيلة كهذه، يكفيني تعب يوم الجمعة والركض المحموم على الهاتف بين التطبيقات والحسابات. كنت أود القول إنه ليس بالأمر السهل، لكن الحقيقة أنه سهل جدًا، لا يمكنك أن تتصور السهولة التي يمكن

أن تعرف بها كل شيء عن حياة أي شخص الآن، المهم أن تكون لديك الرغبة والإرادة، ولا أحد يملك الرغبة والإرادة أكثر من فتاة متيمة بالحب.

نعم، ما قرأته صحيح. أنا متيمة بك. مغرمة إلى حد الهوس، وأكثر ما يثير غضبي وحنقي هو أن أفكر فيما قد تخسره إن سمحت لنفسك بأن تكون لأي فتاة أخرى. بربك، هل من واحدة غيري تعرف كل وظيفة عملت بها، وأسماء كل أصدقائك، وأكلاتك وأغنياتك المفضلة، والأماكن التي تحب ارتيادها، والبلاد التي تتمنى زيارتها، وتحفظ كل منشور كتبته يومًا على أي منصة افتراضية؟ مستحيل. ينتابني حزن غامر حين أفكر في أنك تضيع هذه الفرصة، وأنا أقدمها لك على طبق من ذهب. حاولت أن أوصل لك الرسالة بطرق كثيرة، اختلقت صدفًا للقائك، كبست زر الـ Love مرات لا تُحصى على صورك، حتى تلك التي لا تعجبني. أكذب طبعًا، كل صورك تعجبني، وكل ما تقوله يعجبني حتى قبل أن أقرأه. أما أنت فلم تسجل إعجابك بأي من صوري سوى مرة واحدة، ولم تكن صورتي حتى بل صورة سيارتي الجديدة، لكنني حدقت يومها في اسمك بين المعجبين بالصورة لساعات. أتفقد حسابي كل خمس دقائق كي أتأكد أن اسمك ما زال هناك، وأنك لم تسحب إعجابك لأنه كان بالخطأ.

لا أعرف ما مشكلتك. حقًا. ألا ترى؟ ألا تفهم؟ في الحقيقة، أخشى أنك تفهم وتتظاهر بعدم الفهم، لكنني لن أعذب نفسي بهذا الافتراض، أنا أعقل من ذلك. على الأقل أعرف أنه ليس هناك امرأة أخرى، لا يمكن أن يكون ذلك قد فاتني، إلا إذا... لا، قلت إني لن أعذب نفسي بافتراضات بعيدة، لكن إن حدث وكانت تلك المرأة موجودة، فأنصحك بأن تخفيها جيدًا، وإلا انتهى بها الأمر أن تكون بين الشهداء والأبرار، ضحية بريئة لتفجير قامت به امرأة أعماها العشق ذات جمعة.

مع كل الحب، جمعة مباركة.

إلى شعرتي البيضاء الأولى...

لا أخفيكِ أنني تفاجأت بك، لم أكن أتوقعك الآن، ليس بعد. لكنني تفاجأت أكثر برد فعلي لدى رؤيتك لأول مرة. لطالما ظننت أن الأمر سيكون أشد وطأة من ذلك، كنت أنتظرك كنذير الشيخوخة الأول، جرس الإنذار الذي يعلن بداية العد العكسي، تناقص الشباب حتى زواله، ورقة الخريف الأولى. . تصورت أنني بمجرد رؤيتك سأدخل في حالة من الاكتئاب مصحوبة بهلع يدفع بي إلى الصالونات وعيادات التجميل، لتبدأ رحلتي مع صبغات الشعر وإبر البوتكس، وما ألبث أن أشرع في بحث محموم حول إمكانيات الإنجاب بعد الأربعين...

لكن أيًا من ذلك لم يحدث. كل ما فعلته أنني واريتك بهدوء بين أخواتك السود، لم أفكر حتى في قطعك والتخلص منك - لا إذعانًا للخرافة القائلة إن قطع شعرة بيضاء يتسبب بنمو سبعة بدلًا منها - والتي لا بد اخترعتها إحدى أسلافك في سعيها للبقاء - وإنما احترامًا لحقك الطبيعي في الوجود، أو قد أكون قررت الاحتفاظ بك كتذكار من نوع ما، أو بالأحرى علامة فارقة، فيصبح عمري منذ الآن منقسمًا إلى قسمين: ما قبل الشعرة البيضاء وما بعدها.

ما يضحكني أنني الآن وقد بدأت أدخل صفوف الشيّاب أشعر بالصبا أكثر مما كنت أشعر به منذ سنوات، حتى قبل أن ألاحظ الخيوط الأولى حول شفتَي وعينَي. كان لدي شعور دائم بأن العمر ينساب من بين أصابعي، وبأنني تأخرت، لا أدري على ماذا، أنا متأخرة وأجري كي ألحق بالزمن وحسب، وكلما تقدم بي العمر عامًا نظرت إلى نفسي في العام الماضي ورأيت كم كنت صغيرة وساذجة، إلا أنني ظللت أشعر بأنني كبيرة، كبيرة ومتأخرة، لا تفوتني القطارات، بل أركب قطارًا سريعًا يمر بكل المحطات جميعًا بلا عودة.

ربما لو ظهرت لي في تلك الأيام لانهرت عصبيًا، كنت ستشكلين صدمة تؤكد شكوكي بأنني دخلت الشيخوخة مبكرًا من أوسع أبوابها. لم يكن لدي ما يسندني في وجه ذلك الاعتقاد. لم يكن لدي سوى قلب يابس منطفئ، وروح تذوي داخل جسد فتي، كتلك النبتة التي جفت وتكسرت أوراقها حين نسيتها أمي في زاوية بعيدة عن الشمس. هي المرأة كذلك أيضًا، قلت لنفسي، تذبل وتهرم إذا ما حُرمت من الحب.

وأنا مثلها، جف قلبي فذبلتُ وشاخت روحي، ثم ارتويت فما عدت أعدّ الأيام أو أحسب للسنوات حسابًا.

كوني بيضاء كما تشائين، انتشري وتكاثري، فما دام القلب ريان والنفس دافئة، قليل من الحناء تتكفل بالأمر

مع محبتي

أبنائي الأعزاء...

لا، لست مجنونة، ولا أدعي معرفة الغيب، ولا أعرف من تكونون أو أسماءكم أو أشكال وجوهكم، أو إن كنتم موجودين في عالم موازٍ ما. كل ما في الأمر أن لدي بعض الكلام الذي أود قوله لكم كي يعرف كل منا ما له وما عليه.

مثل جميع الناس، أشعر بأن لدي خبرات ودروسًا وقصصًا كثيرة جمعتها في حياتي وأرغب في توريثها للجيل القادم. إنها غريزة الاستمرارية إن شئتم أن تسموها بذلك. كل منا يبحث عن البقاء والاستمرار بشكل ما، حتى بعد أن تأكلنا ديدان الأرض. ومن أفضل من أبنائك كي تورثهم خبراتك؟ لا يمكنك أن تجلب أشخاصًا من الشارع وتدعهم يسمعون قصصك كل يوم، فأنت لا تملك سلطة أبوية على الناس في الشارع ولا تعطيهم مصروفًا. أبناؤك هم جمهورك الأول، خاصة في سن الطفولة حين يعتبرونك شخصًا مهمًا، على كل أب وأمّ أن يستغلوا هذه المرحلة قبل أن يكتشف أبناؤهم أنهم بالكاد يكوّنون ذرة في الغبار الكوني.

صحيح أنكم تأخرتم، لكن كما يقولون: "كل تأخيرة وفيها خيرة"، لا لأن المرء يكتسب خبرات جديدة بمرور الوقت فقط، بل لأنني غيرت رأيي في كثير من الأمور، ولو كنت برمجتكم عليها من خمس أو ست سنوات لكان علي الآن إجراء غسيل شامل لأدمغتكم والبدء من الصفر. يمكننا أن نتفاهم حين أثبت على رأي محدد وأتوقف عن إعادة برمجة نظامي كل عام، وحتى ذلك الحين لا أظن أن أيًا منا في عجلة من أمره

بصراحة، المسألة ليست مسألة عجلة أو تمهل فحسب. وبصراحة أكثر، لا أشعر بفرق كبير فيما إن جئتم أو لم تأتوا. لا تسيئوا فهمي، فأنا متأكدة أنكم إن أتيتم إلى هذا العالم فسأحبكم أكثر من أي شيء، هذا شيء مفروغ منه رغم أنف كل النظريات النسوية! ليس

هناك أم تلد أبناءها ثم تقرر ما إن كانت ستحبهم أم لا. قد يصيبها اكتئاب ما بعد الحمل، قد تكره الدنيا وما فيها، لكن هذا لا يعني أنها لا تحب الطفل الذي أنجبته، كل ما في الأمر أنها لا تستطيع الوصول إلى الحب الذي بداخلها تحت طبقات البؤس والاكتئاب والهرمونات. صحيح أن العلاقة بين الأم والطفل تبدأ علاقة تطفل، وأن الجسم يحاول التخلص من الجنين في البداية، لكن كل هذا يقود إلى الحب الغريزي اللاعقلاني نفسه بطريقة بسيطة على تعقيدها. دعوني أقرب الصورة، فما زلتم صغارًا وربما لن تفهموا هذا الكلام المفلسف: علاقتي بكم حاليًا كعلاقتي بالمجدرة؛ لا أشتهيها ولا أعتبرها طبخة أصلًا، وقد أمتعض حين أسمع اسمها في البيت، لكن بمجرد أن أسكب صحنًا منها أشعر بأنها أطيب شيء في العالم...

وبما أننا نتحدث بصراحة فلن أدعي العمق والحس المرهف وأقول إنني لا أريد إنجابكم كي أحميكم من هذا العالم القذر البشع وما إلى ذلك. أبدًا. إنه عالم قذر بالفعل، والأغلب أنه سيكون أقذر بمراحل على زمانكم إن استمر الوضع على ما هو عليه. لكن هذه مشكلتكم، بصراحة. ها نحن أمامكم، منذ أبصرنا النور ونحن نشهد حربًا وراء حرب ونكسة وراء نكسة، ولم يكن لدينا سبيس تون ولا بوستات توجيهية تنظيرية على الفيسبوك تعلم الأهالي كيف يربون أبناءهم، وها نحن ذا، أحياء نرزق ويُرزق منا. أعرف ماذا ستقولين، أنت هناك في الزاوية: "تتكلمين كما لو كنتم جيلًا ذهبيًا، مع أنكم كتلة من العقد النفسية المرباة على الزبدة المهدرجة والسكر المكرر!" لا بأس، لنرَ ماذا سيفعل جيلكم يا صاحبة اللسان الطويل. المهم، عالم قذر أم لا، تدبروا أمركم. أقصى مساعدة يمكنني تقديمها لكم هي أن أحاول قدر الإمكان ألا أساهم في الاحترار العالمي وألا أغسل السيارة بالبربيش وأن أحافظ على طبقة الأوزون وأعيد تدوير ما أمكن من النفايات. أن أسلمكم البيت نظيفًا بمعنى آخر. أما ألا أنجبكم خوفًا عليكم من العالم فلا، لستم أحسن من غيركم، وفي النهاية يجب أن يأتي جيل آخر لاستلام الوردية.

دعوني أخبركم بالسبب الحقيقي الذي قد يجعلني لا أنجبكم، إنه بيت شعر. نعم، قول ذلك الشاعر: "إنما أولادنا بيننا أكبادنا تمشي على الأرض". لِمَ قد آخذ قطعة من كبدي وأتركها تسرح وتمرح على الأرض وأعيش في قلق مستمر؟ ثم يتطور الأمر، الكبد نزلت إلى الشارع، الكبد ذهبت إلى المدرسة، الكبد تريد أن تركب دراجة نارية، الكبد لديها حساب سنابتشات. أنا في حياتي لم أجرب تربية سمكة زينة ولا نبتة صبار حتى لشعوري بأنها مسؤولية، فما بالك بكبدي؟ لاحظوا أن الشاعر قال أكبادنا ولم يقل قلوبنا مثلًا. نحن العرب أكثر شعب رد إلى الكبد اعتبارها، ولاحظوا أن الكبد مؤنثة بالمناسبة (هاشتاغ لغتنا الجميلة). حتى في المسلسلات الخليجية تسمعهم يقولون باستمرار: "يا بعد كبدي". هذا شيء يستحق الثناء، فالكبد لا يقل أهمية عن القلب، فإن كان القلب مضخة البنزين فالكبد هو مصفاة البترول نفسها. الخلاصة، إن كنت تريد إنجاب أطفال فيجب أن تتحلى بقدر كبير من الإيمان كي لا تظل خائفًا عليهم طوال الوقت، أو أن تكون راغبًا فيهم لدرجة تجعلك تخاطر بأن تفقد صوابك وتربط حياتك بقطعة سائبة من أحشائك تمشي على الأرض.

من ناحية أخرى، لا أريد الموت من دون أن أترك جيناتي على الأرض وتنتج منها أجيال جديدة، القيمة الرمزية عالية جدًا. قد يكون لنظرية الاختيار الطبيعي رأي آخر، لكن هذا موضوع طويل يحتاج إلى رسالة منفصلة. على كل حال، عزائي في هذا أن الإنسان حين يموت يتحلل جسمه وتدخل جزيئاته إلى السلسلة الغذائية وتتوزع على الكائنات الحية من نباتات وحيوانات وبشر، يعني هناك احتمال أن أكون أحمل الآن بين خلاياي جزيئًا من شكسبير أو أم كلثوم. هذا يذكرني حين سألتني ابنة أختي ذات مرة بحزن لماذا نأكل البقر، فأجبتها بأننا حين نموت تتحلل أجسامنا وتتغذى عليها النباتات والبقر يأكل هذه النباتات، يعني البقر يأكلنا في النهاية وتكتمل دائرة الحياة و"نبقى خالصين". يومها وبختني أختي لقول هذا الكلام لابنتها، لكن إن تم النصيب وجئتم إلى هذا العالم فاستعدوا لسماع كلام كثير من هذا النوع.

لكنّ أجمل ما في الموضوع أنه ليس لكم رأي فيه. لكن سأقول لكم من الآن: إن كنتم تتوقعون أمًا من جماعة "أبنائي حبي وحياتي وغرامي وانتقامي" واقتباسات مع قلوب حب على الفيسبوك، أو من الأمهات اللاتي لا يعطين أبناءهنّ إلا طعامًا طبيعيًا خاليًا من الملح والسكر والمواد الحافظة وتصنع لهم مهروس اللوز بعصيدة الذرة في البيت، أو الأم التي تخيط ملابس تنكرية لأبنائها من أجل مسرحية المدرسة وتكون رئيسة مجلس الأمهات، إن كانت هذه توقعاتكم فها أنا أقول لكم من الآن: جدوا لكم أمًا أخرى. ها أنتم ذا هائمون في عالم الأرواح، اذهبوا وابحثوا عن أبيكم، قد يكون في مكتبة أو مسجد أو في مظاهرة أو اجتماع مجلس إدارة أو في مجلس النواب أو حتى في خمارة (من يدري؟ قد تكون "وقعة سودا")، اذهبوا واختاروا له الأم التي تعجبكم كي لا يأتي يوم تقولون لي فيه: "ليتك لم تكوني أمنا وليت فلانة أمنا". ورب الكعبة، إن كنت لا أزال أتذكر هذه الرسالة واستطعت أن أستخرجها سأريكم إياها وأضعها نصب أعينكم، ولو كنتم سترفعون علي قضية حجر بسبب ذلك. وما الذي ستحجرون عليه بأي حال؟ ألم أقل لكم إنني لا أنوي أن أترك لكم أي أملاك؟ لا بيوت ولا نقود في البنك، تدبروا أمركم كما قلت لكم في البداية، أتتوقعون مني أن أقلق عليكم بعد أن أموت وتصير عظامي مكاحل؟

في النهاية، كل هذا كلام فارغ بطبيعة الحال، فلا يمكنكم اختيار أمّ أخرى لأنكم في تلك الحالة ستصبحون أشخاصًا مختلفين. لا مفر من هذا المكتوب، على افتراض وجودكم في عالم موازٍ طبعًا. لن أخيفكم أكثر، فصحيح أني لست مشروع أمّ مثالية، لكنني لا أتوقع منكم أن تكونوا أبناءً مثاليين أيضًا، ولا أنوي معاملتكم كمشاريع صغيرة تعوضني عن الأشياء التي كنت أرغب في تحقيقها (لكن إن أراد أحدكم أن يدرس الطب فلن أعترض)، ولا أطمح أن تكونوا جهابذ وشخصيات وطنية عظيمة، بل من الأسهل لي أن تكونوا من الأغلبية الصامتة التي "تمشي الحيط للحيط"، لكن إن أردتم أن تكونوا غير ذلك فلن أمنعكم أيضًا، وسأتكفل بلمكم من المخافر بعد المظاهرات والاعتصامات. وصحيح أنني لا أنوي أن أترك لكم ذهبًا تحت البلاطة، لكن يمكن أن أقدم لكم تجارب حياتية قيمة،

وعندي الكثير من القصص. لا تعتبروها دعوة، لكن في حال تجسدتم على أرض الواقع وأصبحتم حقيقة واقعة، أعدكم بأن أجد طريقة كي نتعايش معًا

مع المحبة

أمكم، ربما

عزيزي هاروكي...

قد تستغرب من هذه الرسالة، فأنا لا أعرف عنك الكثير. في الحقيقة، لا أعرف حتى إن كان اسمك هاروكي، لكنني سأسميك هاروكي على أي حال. كل المعلومات التي أملكها عنك مصدرها إنستغرام، حيث أخبرني التطبيق بالأمس بأن أحدًا ما في منطقة ما بالقرب من اليابان حاول اختراق حسابي، وطلبوا مني تغيير كلمة السر، مما كان سببًا كافيًا كي أكرهك، وأنا أحملك مسؤولية هذا الكره الذي بدأت به علاقتنا العابرة للقارات.

لكن الكراهية تلاشت بسرعة إذ وجدت نفسي أتساءل: من هذا البائس الذي يعيش في اليابان ويحاول اختراق حساب شخص شبه نكرة في هذه المنطقة المتهالكة من العالم؟ أليس لديك شيء أفضل، أي شيء على الإطلاق، تفعله بوقتك يا هاروكي؟ شغلت بالي، ورحت أتخيلك تجلس في شقتك الفارغة ذات الألوان الباهتة والإضاءة الخافتة، على طاولة بجانب نافذة صغيرة تطل على شارع تجاري قليل الحركة، بجانبك كوب وحيد من القهوة أو ربما الساكي، تطقطق بأصابعك النحيلة على لابتوب من فخر الصناعة الوطنية اليابانية، تحاول اختراق حسابات أشخاص لا تعرفهم ولا يهمونك، لأسباب غامضة مفتوحة على التكهن، كل منها يصلح لقصة...

ثم لماذا قد ترغب في اختراق حسابي على إنستغرام؟ لا شيء هناك، ولا حتى إنبوكس مثير للاهتمام أو الفضائح. يمكنني أن أقول لك بنفسي ماذا ستجد فيه: الكثير من السيلفيز كمن تخشى الخرف وتذكر نفسها بشكلها بين الحين والآخر، وعدد لا نهائي من صور الطعام وأطفال الناس الآخرين، وبعض الصور مع الصديقات -والتي يتم اختيارها بعناية في كل مرة كي يكون الجميع راضيًا عن شكله فيها-، وعدد لا بأس به من صور لابتوب أو

كتاب بجانب كوب قهوة وحيد مثل قهوتك. إن فكرت في الأمر، نحن لا نختلف عن بعضنا كثيرًا، فأنا أيضًا أجلس مع كوب شاي وحيد أمام شاشة لابتوب، أراسل دور نشر يمكنني المراهنة على ردها مسبقًا، وأبحث عن فوائد اللوز وبذور دوار الشمس لمقاومة عوامل الحت والتعرية، وتزدحم في رأسي قصص ومشاهد لا أعرف أين أكتبها أو كيف، وأكتب رسالة لشخص قد يتضح أنه روبوت في النهاية. الفرق بيننا أن غرفتي ليست باهتة الألوان، ولابتوبي ليس صناعة وطنية، ولا أحاول سرقة حسابات الناس...

عزيزي هاروكي،

كان بودي أن أدعوك لتشاركني بؤسك على كوب من القهوة في هذه المنطقة التي يبدو أنها تثير اهتمامك لسبب ما، لكنني أدرك أن احتمال وصول هذه الرسالة إليك هو كاحتمال قيام دار النشر المذكورة بأخذي على محمل الجد، ولا أظنك تقرأ العربية، ولا أنت بتوم هانكس ولا أنا بميغ راين، وأحد كوابيس حياتي أن أغير كلمة السر لأي تطبيق، فاترك حساباتي في حالها ويخلف عليك.

إلى بعوضة...

لما يزيد عن ثلاثين عامًا كنا مثالًا يُحتذى به للتعايش بين كائنات الأرض. فبينما كنتُ لا أتعرض لك أو لأخواتك بأذى وأتركك تصولين وتجولين على هواك، كنتِ تتركينني أنام ملء جفوني، ولا تزعجينني بهرش أو طنين ولا تحاولين أخذ نصيب لك من دمي الذي أحسبك ترفعت عنه لمرارة وجدتها فيه، أو لثخونة أو ربما لكرم أخلاق منك إذ أدركت أن مخزون الدم الذي لدي بالكاد يكفي للعمليات الحيوية وغيرها من التفاعلات الإنسانية الأخرى، ولا يحتمل المشاركة مع طفيلي خارجي وإلا تحولت إلى إنسانة "ما عندهاش دم" كما يقولون. أو لعلك تأنفين البشرة السمراء لموروث جاهلي وعنصرية كامنة في نفسك، وبالتالي كان جلدي ودمي دون المستوى المطلوب، فتحيدين عني وتشبعين عطشك الدموي ممن فتح لونهم ولانت جلودهم تحت مجساتك.

ما الذي تغير الآن؟

هل أصبح الدم المر يروق لك فجأة؟ أم هل تراها المشاهد الدموية على شاشات التلفاز هي التي فتحت شهيتك لمزيد من الدماء فنكثت ما كان بيننا من عهد؟ الأدهى أن تكوني قد سمعتِ بتفكير الحكومة في تخفيض سقف الإعفاء الضريبي، فقررت أنت تخفيض سقف الإعفاء الدموي بدورك، لأن الحكومة مش أحسن منك.

ذاك اليوم رأيتك تقفين على الحائط، سمينة وسوداء من شدة امتلائك بالدم. ألا تخشين أن يثقلك كل هذا الوزن يومًا فلا تستطيعين الطيران وتكون نهايتك تحت حذاء أو شبشب يجعل منك أحفورة في جدار؟

لو أن الأمر اقتصر على الطنين ما أن أطفىء النور لربما كنت سأغض الطرف وأدعك تسرحين وتمرحين، ففي النهاية كل هذه النباتات والأشجار حول البيت الجديد لا بد أن تجذب مختلف أنواع الكائنات الحية الدقيقة، ضريبة الماء والخضرة. لكن التورمات الحمراء الصغيرة الناتجة عن لدغات لا يشعر المرء بها إلا بعد فوات الأوان وما يرافقها من حكة هي ما دفعني إلى تغيير سياستي. أجل، لم تتركي لي خيارًا آخر. أنا التي كنت لا أطيق رائحة "الفيب" ولا أجد له داعيًا اشتريت آلة جديدة ووضعتها بقرب السرير ... وعلي وعلى أعدائي! نعم يا عزيزتي، أنت والشعشبون والخنافس الآن سواسية.

صدقيني، لقد فكرت في حل آخر. حين رأيتك تقفين بأناقة على الجدار المجاور للسرير، وبعد أن استنفدت كل الوسائل المتاحة للتخلص منك، تنهدت وفكرت بشكل يكاد يكون جديًا في أن أتبناك كحيوان أليف. أضع لك بعض العسل على منصة صغيرة ألصقها بالجدار، تقتاتين عليه وتتركينني بحالي. إلا أن الفكرة لم تبدُ مجدية، كما أن علينا الاعتراف بأنها جنونية بعض الشيء. الصداقة بين الإنسان والبعوض ضرب من الخيال، إنها علاقة تطفل وصراع أزلي، كما أنني لا آمن غدرك بعد ما رأيته منك من جشع. فكرت أيضًا في تربية خفاش، هل تعرفين أن الخفاش يمكنه التهام ألف بعوضة في ساعة واحدة؟ لكنني لا أملك خبرة طويلة في تربية الثدييات الطائرة ولا الشجاعة الكافية لاصطياد الخفاش الصغير الذي يحلق في الحارة، ومن هنا ألغيت الفكرة.

لكنني يا غريمتي أخشى علي منك كما أخشى عليك مني، بل أكثر، لأكون صادقة معك. أخشى على اتزان عقلي وسلامة تفكيري من الوقوع في شرك الأوهام ونظريات المؤامرة؛ فهجومك المباغت ما أن يجن الليل واتحادك مع عوامل الأرق الأخرى تجعلني أتصور وجود اتفاق من نوع ما بينك وبين جهة سرية من مصلحتها منعي من النوم ودفعي للاستيقاظ مفزوعة في ساعات الليل الحالكة.

اصدقيني القول، من أجل ما كان بيننا من تحالف فيما مضى، هل تعملين لحساب أحد؟ لست مجنونة لأظن أنك تحملين جهاز تنصت من نوع ما، لكن أيعقل أن يكون طيرانك المتثاقل ناتجًا عن حمولة زائدة من الدم فحسب؟ الأمر يستحق البحث.

في النهاية يا عزيزتي، لا تظني هذه رسالة مقفعية تحمل من المضامين أكثر مما تظهره الكلمات، بل هي رسالة صادقة حرفية بحذافيرها بهدف التوصل إلى حل ما، وإلى ذلك الحين: الفيب عن يميني والشبشب عن يساري، والخيار لك.

إلى مضاد الاكتئاب

لا أعرف كيف تمالكت نفسي وأنا أذكر اسمك للصيدلانية. كنت أعرف أنه يمكنني الحصول عليك بلا وصفة طبية وبلا شرح وتبريرات أو أي إثباتات على أنني لست مدمنة تسعى وراء جرعة أخرى من سمّها المرتضى، ربما في مكان آخر كان علي أن أحمل وصفة من طبيب مختص، لكن ليس في هذه البلاد. هنا يعرفون أنك إن كنت تملك ترف الاكتئاب فإنك لا تملك ترف الطبيب النفسي، ولأن "حارتنا ضيقة وبنعرف بعضنا" فلا أحد يسأل أحدًا لماذا يحتاج إلى مضاد اكتئاب.

لكنّي قبل أن أدخل الصيدلية كنت قد جهزت قصتي كاملة، كمتهم يحضّره محاموه قبل جلسة المحكمة للإدلاء بشهادته على المنصة. الفتاة في الصيدلية صغيرة، لا يتعدى عمرها الثلاثة والعشرين عامًا. وجهها صبوح نقي، لا أثر لهالات سوداء أو شحوب ربّته قلة النوم والطعام كوجهي الذي خشيت أن يضعني في دائرة الشك. قلت لنفسي: هذه لن تفهم. سترمقني بنظرات ارتياب ثم تسألني إن كانت لدي وصفة طبية، ثم ستهز رأسها وأنا أحاول أن أبرر لها الأمر وتنصحني بالذهاب إلى طبيب نفسي يصف لي الدواء ويشرف على حالتي. لا يهم، لقد جهزت خطابًا مؤثرًا، سأقول لها ما كل ما حدث، سأخبرها بأن لحظة الراحة الوحيدة التي أحظى بها في الصحو هي ذلك الجزء من الثانية الذي يتلو استيقاظي من النوم، قبل أن يدركني طوفان الوعي فأتذكر أنني هنا، وأنا من أنا، وأنّ ما حدث قد حدث.

لكنها لم تقل شيئًا. ابتسمت ابتسامة العارف، كأنها رأت هذا المشهد من قبل، كأنها تعرف كل شيء. استدارت وسألتني عن عيار الدواء، قلت لها إنني لا أعرف، لكن قلت لها إنني لا أستطيع النوم، وإنني لم أعد أقوى على ممارسة الأمور اليومية. تجهمت فتجعد جبينها الذي كان مشدودًا للتو، ثم تناولت علبة الدواء وقالت لي ألا آخذ أكثر من حبة في اليوم.

إلا أنها تلكأت لحظة قبل أن تضعه في الكيس، كأنها تريد التأكد أنني أعرف ما أنا مقدمة عليه. قالت لي إن هذا الدواء يعمل على تخدير الحواس، لا يميز بين المشاعر بل يذهب بها كلها جملة واحدة. لا كآبة، لكن أيضًا لا فرح. قلت لها إنني راضية ما دام سيترك لي القدرة على النوم، وليأخذ ما يريد غير ذلك.

في البداية لم أشعر بشيء، حتى أنني بدأت أشك أن الصيدلانية أعطتني حبوب سكر وأوهمتني أنها دواء للاكتئاب. ما زلت أفرغ علبة مناديل ورقية كل يوم، وما زال كل شيء يبدو مغلفًا بالكآبة، حتى الشمس نفسها. لكن بعد اليوم الثالث، بدأ يحدث شيء غريب. استيقظت من النوم وكان العالم يبدو قابلًا للعيش. لا شيء مهم، لا شيء يستحق دموعي التي لم يعد بوسعي ذرفها ولو حاولت. وما هي إلا أيام قليلة حتى استعدت قدرتي على الأكل، وأصبحت أغفو على الوسادة قبل أن تكتمل في رأسي فكرة واحدة.

كان هذا اتفاقي معك منذ البداية، تخدرني فلا أعود أشعر بشيء. امرأة آلية تمارس الحياة كما يجب، تعيش يومًا بيوم، ثم تأوي إلى الفراش من دون وقت للتفكير في اليوم التالي. لا وقت للحزن، لا وقت للفرح. كان قلبي كتلة ملتهبة من نار ودخان، فأطفأته وبردته حتى استحال كتلة من جليد. كنتُ كمن تبيع روحها للشيطان، تأخذ قدرتي على الحزن، فأهبك قدرتي على الفرح.

أنا لم أعد أنا. كل ما أحمله من نفسي القديمة ذكرى مبهمة لحب وأمل، وكثير من الخيبات. كتلة من ركام تحمل هوية شخصية تثبت وجودها الذي لم يعد يثير اهتمام أحد، كما لم يعد شيء يثير اهتمامها. لا أدري هل أشكرك على ما وفرت علي من خيبات جديدة، أم أسخط عليك لما حرمتني منه من فرح محتمل، مهما صغر الاحتمال.

أشتاق إلى الفرح، وأشتاق إلى أشياء أخرى اعتمدت عليك لنسيانها فنسيت نفسي ولم أنسها. وها أنا الآن أمام خيارين، أستغني عنك وأراهن على فرح قد يأتي بخيبة جديدة، أم

أعود إلى الصيدلانية ذات الوجه الملائكي، فتبتسم لي من جديد من دون سؤال وتعطيني جرعة أكبر؟

ليتك تعطيني وقتًا لأفكر في الأمر قبل أن أغفو من جديد...

عزيزي فرانسوا[1]

مهلًا، قبل أن تكوّم الرسالة وتلقي بها في جدول ماء ما، أو تستخدمها ككرة للعب مع أقرانك، أو حتى تلتهمها لتسكت بها جوعك ثم تبصقها مدركًا أنها لا تملك الطعم الطازج لأوراق الأشجار التي اعتدت عليها. أعرف أنك قرد لا تقرأ ولا تكتب، وأن أي استخدام لهذه الرسالة سيكون أجدى من محاولة فك طلاسمها بالنسبة إليك، لكنّي أكتب على أمل أن تقع الرسالة في يد ترجمان يقرؤها عليك ويوصل إليك ما أعرضه أنا، الشاب الغريب من أقاصي الأرض، بكل أمانة.

لا أخفي عليك شعوري حين رأيتك أول مرة. كان ذلك عبر شاشة التلفاز طبعًا، لا سبيل لي إليك في هذه الصحراء غير صندوق الأمنيات ذاك، لكنني حين رأيتك تتقافز بين الكهوف الجيرية بتلك الخفة شعرت بعظم الثقل الذي يشدني إلى الأرض وأنا مستلقٍ على الأريكة، بعبوة الكولا الدايت عن يميني وبكيت الشيبس بالحجم العائلي المتربع في حضني، وأدركت المفارقة في أن يكون هذا وقت راحتي من عملي اليومي الذي يتطلب مني الجلوس على كرسي ووضع حاسوب على حضني طوال اليوم.

لكن ليست الأريكة هي ما كان يثقلني فحسب. حياتي كلها بدت ثقيلة، كل شيء يربطني بحيّز محدود من الحجارة والأسفلت. وظيفتي التي تأكل جلّ نهاري، أقساط السيارة التي تأكل نصف راتبي، "التريد ميل" في الجيم الذي أجري عليه ولا أصل إلى أي مكان، ولا حتى إلى الوزن المثالي الذي سيثير إعجاب الفتاة المثالية، وهذه الفتاة المثالية نفسها التي أراها في كل فتاة لا تراني...

[1] فرانسوا لانغور، نوع من القرود يعيش في جنوب شرق آسيا

انهالت علي كل تلك الأفكار حين رأيتك تثب بين الصخور غير عابئ بشيء، تتناول غداءك بينما تتأرجح على غصون الأشجار، تتغوط حيث تشاء ثم تغتسل في النهر، لا يهمك إن كنت قد تذكرت إشعال السخان أم تشغيل مضخة الماء. أول الشهر عندك كآخره، ولم تسمع بقانون الضريبة الجديد ولا القديم، ولا يعنيك قانون الجرائم الإلكترونية في شيء، وموسم التنزيلات الوحيد الذي يهمك هو موسم التزاوج.

أعلم أن كل هذا الكلام قد يجعل الصفقة التي سأعرضها عليك تبدو ظالمة وغير معقولة، لكن امنحني فرصة لأضع أوراقي على الطاولة، والقرار لك بعد ذلك. أنا، رغم شكواي السابقة، مواطن صالح، أدفع ضريبتي وأحتج عليها، أسدد فواتير الماء والكهرباء والهاتف بانتظام مما يؤمن لي خدمات مريحة تغنيني عن الحفر في التراب كلما احتجت إلى قضاء حاجتي أو حمل دلاء الماء من البئر كلما أردت الطهارة. لدي سيارة عمرها بنصف عمري تحملني حيثما أردت ما دمت أغذيها بالزيت والبنزين، أشعر بأنها تستغلني بعض الشيء، لكن كل شيء هنا يستغلني، وهي أولى بذلك. صحيح أنني أشعر أحيانًا بأنني آلة صراف آلي تتم تعبئتها وتفريغها بانتظام، لكن لا تجعل ذلك يثبطك عن قبول عرضي الآتي، فمع إقراري بإعجابي الشديد بأسلوب حياتك الخالي من الهموم والالتزامات، إلا أنني أدرك أن هناك جانبًا خطرًا يجعلك في تأهب وترقب دائم، فللحرية ضريبة أيضًا، وكما تقضي يومك في اللهو وتناول أوراق أشجارك المفضلة، لا بد أنك أنت نفسك وجبة مفضلة لحيوان آخر...

هذا بيت القصيد ومغزى الصفقة التي أعرضها عليك: قايضني حريتك بأمني. خذ ماء الحنفية والسيارة المرهونة للبنك واشتراك الإنترنت، وأعطني راحة بالك وتخففك من كل التزام. خذ خوفي من مقص الرقيب وتهم التجمهر غير المشروع، وأعطني خوفك المشروع من النمور المتربصة. خذ صراع الوجود وأعطني صراع البقاء.

كما قلت، لا أدعي أنها صفقة منصفة، لكنّي أستعطف إنسانيتك، أو حيوانيتك، لتحقق لي هذا الطلب.

في انتظار ردك الذي أرجوه قريبًا...